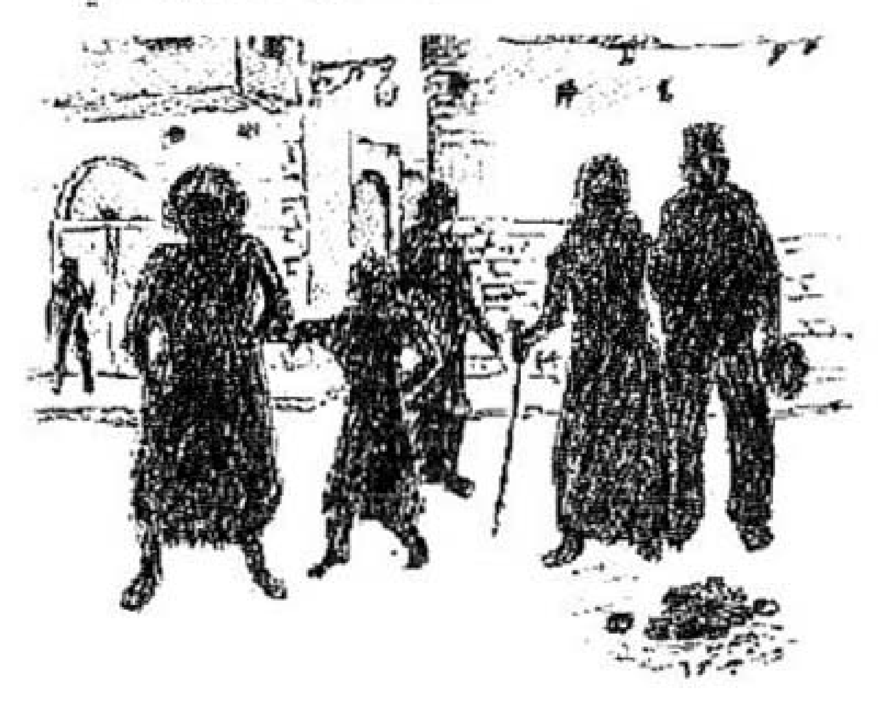


شهاب الدين السهروردي صاحب مدرسة إشراقية فريدة

محمد عيد الخريبوطلي(*)



مقدمة :

إن بزوغ نجم كالسهروردي في التاريخ نادر جداً، ولكنه ذهب ضحية الحسد والتعصب المقيت، فكثير مثله لقوا حتفهم جراء الفكر الظلامي، فكم من كتب أُحرقت أمام مبدعيها نتيجة لهذا التعصب المقوت، وكم عالم مفكر سجن وعذب وقتل نتيجة ذلك، وذنبه أنه مبدع ومفكر ولم يساير أهل علم زمانه، وقد حل به ما حلّ بابن رُشد وابن حزم وكثير مثلهم، إنهم يَعدمون الفكرَ الحر في كل عصر وزمان.

(*) باحث سوري.

- العمل الفني: الفنان رشيد شما

وسأتناول واحد من هؤلاء الرموز الذين كانوا ضحية هذا التعصب المقيت، إنه شهاب الدين السهروردي، فمن هو..؟ ولماذا قتل..؟ ومن قتله..؟

إنه شيخ الإشراق الذي مات شاباً، صاحب المؤلفات التي كتبها وهو في الثلاثين من عمره، هذه المؤلفات التي ما زالت تشغل بال العلماء الدارسين من العرب والمستشرقين، الذي تحسر كثيراً وهو يبحث عن إنسان يشاركه الحكمة فلم يجد، فقال: «هاهو ذا سني قد بلغ إلى قريب من ثلاثين سنة، وأكثر عمري في الأسفار والاستخبار والتفحص عن مشارك مطلع على العلوم، ولم أجد من عنده خبر عن العلوم الشريفة، ولا من يؤمن بها».

ولادته ونشأته في طلبه للعلم:

ولد أبو الفتوح يحيى بن حبش، الملقب بشهاب الدين السهروردي بقرية فارسية جبلية قرب زنجان تدعى سُهْرَوَرْدُ في بداية النصف الثاني من القرن السادس الهجري، ويرتحل من بلدته إلى مراغة ليتعلم الحكمة وأصول الفقه على يد مجد الدين الجيلي، ثم رحل إلى أصفهان ودرس المنطق على يد ظهير الدين الفارسي، ثم رحل إلى ماردين فأخذ علوم اللغة والفلسفة من فخر الدين الماردين، وبعد أن أخذ كل هذه العلوم واكتملت عدته صحب الصوفية، واشتغل بالرياضيات الروحية والخلوات كعادة الصوفية،ولما خرج من خلوته ولم يتجاوز العشرين إلا بسنوات قليلة، فأحب أن يسيح في الأرض متأملاً مستغرقاً محاولاً الارتقاء إلى نبع الأنوار العلوية حيث كان دائماً طموحاً وخاصة أنه كان ذا همة عالية ندرت أن توجد عند غيره.

وفي سياحته مر على بلاد كثيرة مثل ميافارقين وديار بكر لكن آخر بلد أقام فيه هو حلب حيث قتل فيها.

فلسفة السهروردي في الثياب:

وفي كل رحلاته كان يلبس زي الدراويش، لا يلتفت إلى متاع الدنيا أبداً، وكان له فلسفة خاصة في الثياب، يقول أحد فقهاء قزوين: «إنه نزل برباط صوفي بأرض الروم شتاء، فسمعته يقرأ القرآن، فقلت للخادم: لا يدخل عليه أحد لكنه إذا الشمس يخرج ويصعد السطح فأبصره، قال الفقيه: انتظرته ولما خرج وصعد السطح قمت وسلمت عليه، وعرفته أني قصدت زيارته، وسألته أن يجلس معي ساعة، فطوى مصلاه وجلس فجعلت أحدثه ولكنه في عالم آخر، فقلت له: لو لبست شيئاً غير هذا اللباد، فقال: يتوسخ! فقلت: تغسله، فقال السهروردي: ما جيئت لغسل الثياب، لي شغل أهم من ذلك..!»

مؤلفاته:

ترك السهروردي العديد من المؤلفات الرائعة، بالعربية والفارسية قاربت الخمسين فقد كتب بالعربية: حكمة الإشراق، التلويحات، المقاومات، الألواح العمادية، الواردات، الغربة الغريبة، كلمات ذوقية ونكات شوقية.

وكتب فارسية: لغات موران (لغة النحل)، صفير سيمُرْغ (صفير العنقاء)، أوزبر جبرائيل (أصوات أجنحة جبرائيل).

وبعض مؤلفاته كتبها بالعربية ثم أعاد كتابتها بالفارسية مثل هياكل الثورة، وقد بلغت مؤلفاته قدراً من الرمزية الساحرة في ألفاظها ودلالتها، ومازالت تشغل بال الدارسين وتلهب خيال الصوفية.

السهروردي والتصوف:

انطلق منهجه في التصوف من السَوْرة الروحية الهائلة التي فجّرها الحلاج وانفجر بها، وذلك ما دعا المستشرق هنري كوربان أفضل متخصص في دراساته حول السهر وردي إلى القول: «لقد بدأ السهروردي حياته الروحية بنفحة من شعر الحلاج في التوحد، وقضى عمره يوقع عليها متنوع الألحان، وتلك النغمة هي: لأنوار نور النور في الخلق أنوار- وللسرّ في سر المُسرّين أسرارُ لقد غاص دارسو السهر وردي في مؤلفاته، لبحث مذهبه الصوفي، لكنهم لم يفحصوا في شعره الصوفي، ومعظم ما كتب عنه يكاد يخلو تماماً من ذكر ما ترنم به من أشعار، وقد صدر كتاب في ذكراه المئوية الثامنة جمع فيه مقالات ودراسات عنه، هذا الكتاب لم يذكر فيه بيت واحد من الشعر للسهروردي، فعرف فيه السهروردي في مجال البحث دون الشعر، ولكن الدكتور يوسف زيدان دخل لفكره من باب أشعاره، ليتذوق أدبه وليتعرف على فكره في وقت واحد قال: يقول شهاب الدين السهرودي:

لأنوارِ نورِ الله في القلب أسرارُ
وللسرِّ في سرِّ المحبين أسرارُ
ولما حضرنا للسرورِ بمجلسٍ
وحفَّ بنا من عالم الغيب إسرارُ
ودارت علينا للمعارف قهوةٌ
يطوف بها من جوهر العقل خمّارُ
فلمّا شربناها بأفواه فهمنا
أضـاء لنـا منها شموسٌ وأقمارُ
وخاطَبنا في سُكرنا عند صحونا
قديمٌ عليمٌ دائـمُ العفـوِ جبارُ
وكاشفنا حتى رأيناهُ جهرة
بأبصار صدقٍ لا تُـواريه أستارُ
فغبنا به عنّا ونلنا مرادنا
ولم تبق فينا بعـدَ ذلك آثـارُ
سجدنا سجوداً حين قال تمتعوا
برؤيتنا إنــيْ أنا لكمُ جــارُ

يقول زيدان: في هذه الأبيات ينطلق مما سبق مما انتهى إليه الحلاج، وراح يستكمل مذهب النور الصوفي أو ما عرف باسم الإشراق، فيحدثنا عن حضور الأنوار في قلبه عند ارتقائه إلى عالم الحضرة الإلهية، وشربه من خمر المعارف الأزلية، ففي هذا المقام أضاءت في قلبه شموس وأقمار، وفي هذا المقام تكشفت الأنوار الربانية الباهرة في بصيرة الصدق حتى بدت دون احتجاب خلف المحسوسات أو الإشارة في الأبيات وفي هذا المقام كانت غيبة الصوفي عن ذاته، واضمحلال كيانه الإنساني مع سطوة نور التجلي الإلهي، وإلى تلك الأخيرة أشار السهروردي في أبيات أخرى فقال حيث أفاق من غيبته واضمحلاله:

أفنيتُ بَعدكمُ، هل عندكم خبرُ
طرفي ودمعي، فلا عينٌ ولا أثرُ

قد كنتُ أحذر أن أشقى بفرقتكم

فقد شقيتُ بها لم ينفع الحذر

المرءُ في كل يومٍ يرتجي غدَه

ودون ذلك، مخبوءٌ له قدَرُ

القلبُ يأملُ والآمالُ كاذبةٌ

والنفسُ تلهو وفي الأيام معتبَرُ

يتحسر هنا على إفاقته من سكر أنوار التجلي، ويهفو قلبه إلى الانفجار في بحر النور، ويحكي شقوته مع أيام الاحتجاب التي كان القدر يخبئها له، ولا تنفع مع هذا القدر أمنيات قلب العاشق، يفسح بالصبح النوراني وبالإشراق الرباني، قائلاً:

وكل صبحٍ وكل إشراقِ

ابكي عليكم بدمعٍ مُشتاقِ

قد لسعت حيةُ الهوى كبدي

فلا طبيب لها، ولا راقِ

غيرُ الحبيب الذي شُغِفتُ به

فإنّه رُقيتــي وتِرياقـي

ويبقى الشوق يدفعه، فيشير إلى العروج لعالم الأنوار بلفظ السفر داعياً نفسه إلى عدم التعلق بزخرف المحسوس، متضجراً من صحبة الأغيار والإقامة في الصحارى، بينما الطريق إلى جنة الأنوار يدعوه، فيقول:

أقولُ لجارتي والدمعُ جاري

ولي عزمُ الرحيل عن الديار

ذريني أن أسيرَ ولا تنوحي

فإن الشهب أشرفها السواري

واني في الظلام رأيتُ ضوءاً

كـأن الليــلَ زُيِّنَ بالنهـار

إلى كم أجعلُ الحيَّاتِ صحبي

إلى كم أجعلُ التنين جاري

وكم أرضَ الإقامة في فلاةٍ

وفوقَ الفرقدين رأيت داري

ويأتيني من الضعفاء بَرْقٌ

يذكرني بها قربَ المزارِ

مذهبه الإشراقي في تقسيمه للأنوار الواردة:

بعد هذه المقدمات الشوقية والترنيمات العشيقة، يدخل بنا السهروردي إلى لب مذهبه الإشراقي الذي يبدأ من اعتبار الله (نور الأنوار) واعتبار ما سواه (مراتب نورانية) أما المادة الكثيفة المحيطة بنا من (الجهات الظلمانية).. من هذا التقسيم تبدأ الإشراقية عند السهروردي في تفصيل مراتب الأنوار، فتذكر أول الأمر الأنوار المجردة وهي على نوعين، أنوار قاهرة عرضية بها تتم الإشراقات وتكون المشاهدات في بصيرة المتصوف. وفي كتابه (حكمة الإشراق) يعدد لنا تلك الأنوار التي تشرق على السالكين، إخوان التجريد، ويذكر صفة كل رتبة نورانية، فيقول:

وإخوان التجريد تشرق عليهم أنوار لها أصناف: نورٌ بارق أعظم منه وأشبه منه بالبرق، إلا انه هائل، وربما يسمع معه صوت كصوت رعدٍ او دوي في الدماغ، نورٌ وارد لذيذ يشبه وروده ورود ماء حار على الرأس، نور ثابت زماناً طويلاً شديد القهر يصحبه خدر في الدماغ، نور لذيذ جداً لا يشبه البرق بل تصحبه بهجةٌ لطيفة حلوة، يتحرك بقوة المحبة، نورٌ محرق يتحرك القوى القريبة، وقد يحصل من سماع طبول

وأبواق وأمور هائلة، نور لامع من خطفة عظيمة يُظهر مشاهدة وإبصاراً أظهر من الشمس في لذة مفرقة، نور براق لذيذ جداً يتخيل كأنه متعلق بشعر الرأس زماناً طويلاً، نور سانح في قبضة متلألئة تتراءى كأنها متمكنة في الدماغ، نور يشرق من النفس على جميع الروح النفساني، فيظهر كأنه تدرّع بالبدن، نورٌ سانح يسلب النفس، فيشاهد تجردها من الجهات وإن لم يكن لصاحبها علم قبل ذلك، نور يتخيل معه ثقلٌ لا يكاد يطاق، نور معه قوة تحرك البدن حتى يكاد يقطع مفاصله.

والمتأمل في كلام السهروردي يجده يصف النور كان له جسماً، مع أنه لم يقرأ نظرية اينشتين. المهم أن له مذهباً إشراقياً خاصاً به جمع فيه بين التصوف والفلسفة والثقافات الفارسية القديمة، وهذا ما ناقشه الدكتور محمد علي أبو ريان في بحثه لأصول الفلسفة الإشراقية عند شهاب الدين السهروردي.

السهروردي يعارض ابن سينا:

عارض السهروردي قصيدة ابن سينا العينية المشهورة في النفس التي مطلعها:

هبطت إليك من المحل الأرفع

ورقاءُ ذاتُ تعزُّزٍ وتمنع

محجوبةً عن كل مقلة عارف

وهي التي سفرت ولم تتبرقع

فقد قلل من أهمية ابن سينا كفيلسوف، فقيمة ابن سينا وروعة عبقريته في الطب لا الفلسفة، ولم يعده ضمن الإشراقيين والحكماء المتألهين، فقال: لو كان ابن سينا إشراقياً، لتضوع ريحُ الإشراقية عليه، يشير بذلك إلى تردد ابن سينا بين مذاهب أفلاطون وأرسطو وعدم تمكنه من السلوك الصوفي والرياضيات الروحية، وعارض قصيدته فقال عن النفس الإنسانية:

خلعت هياكلها بجرعاء الحمى

وصَبت لمغناها القديم تَشَوُّقاً

محبوبةً سفرت وأسفر صُبْحُها

وتجرّدت عما أجدَّ وأخلقا

وتلفتت نحو الديار فشاهدت

ربعا عفت أطلاله فتمزقا

وغدت تردد في الفضاء حنينها

فتروم مرتفعا زلوقَ المرتقى

فكأنها أضوت إضاءةَ بارقٍ

ثم انطوى فكأنه، ما أبرقا

وقفت تسائله فردَّ جوابها

رجعُ الصدى، أن لا سبيل إلى اللقا

فبكت بعين الحال معهد عهدها

أسفاً على شمل مضى وتفرّقا

وهو يعبر في هذه الأبيات عن قلق النفس الإنسانية المسجونة في البدن والحياة الدنيوية، تعاني شجون المسجون وتترقب لحظة الرجوع إلى الأصل، ذلك الرجوع الذي لا يكون إلا بالموت، وهنا نسأل كيف مات السهروردي..؟؟

مؤامرة قتل السهروردي:

وفي عام ٥٧٩هـ نزل السهروردي في حلب وأقام في المدرسة الجلاوية، وتناقش مع الفقهاء بلباسه المعروف عنه ولم يعرفه أحد.. ولكن عندما تفوق عليهم وتميز بقوة حجته أثناء النقاش أخرج أحد الشيوخ في المدرسة ثوباً

وأرسله مع ابنه وقال له: اذهب إلى هذا الفقير وقل له: والدي يسلم عليك ويقول لك أنت رجل فقيه فلتحضر الدرس بين الفقهاء وقد سير لك والدي شيئاً تلبسه إذا حضرت، فلما قال ابنه هذا للشيخ ابتسم السهروردي وأخرج له فصاً من الأحجار الكريمة، وطلب منه أن يذهب إلى سوق الجواهرية ليعرف ثمنه، فذهب الصبي وعرض الفص، وتصادف أن كان الملك الظاهر هناك فأوصله إلى ثلاثين ألف درهم، ثم عاد الصبي وأبلغ الأمر، فأخذ الفص ودقه بحجر حتى جعله تراباً لا يصلح لشيء، ثم ناوله الثياب التي أحضرها وقال له: (لو أردنا الملبوس ما غلبنا) ويتابع ابن أبي أصيبعة رواية ما حدث فيقول: رجع الصبي إلى والده افتخار الدين بالملابس وحكى له ما حدث، فبقي افتخار الدين حائراً في أمر هذا الوافد على المدرسة التي يشرف عليها، وسأل الملك الظاهر عن الفص ليشتريه فأخبروه أن الصبي عاد به إلى المدرسة الجلاوية، فجاء السلطان إلى المدرسة وبعد حديثه مع افتخار الدين قال: إن صدق حدسي فهذا شهاب الدين السهروردي.

هل يستطيع الله أن يرسل نبياً بعد محمد؟

هذا سؤال خطير يعرف في علم المنطق باسم (قياس الإحراج) ولا توجد له إلا الإجابات القاتلة، فإذا قال إن الله يمكن أن يرسل نبياً بعد محمد (صلى الله عليه وسلم)، فهذا كفر لأنه آخر الأنبياء وخاتمهم، وإذا قال إن الله لا يستطيع ذلك، فهذا أيضاً كفر، لأنه يحدّ من قدرة الله تعالى ويعني عجزه عن الإتيان بشيء ما، لكن السهروردي ردّ بذكاء شديد فقال: «ليس لقدرته حد..!».

ومع ذلك استنتج الفقهاء من إجابته أن السهروردي يعتقد بإمكان إرسال نبي بعد خاتم الأنبياء، وهذا خروج عن دين الإسلام، لكن المؤامرة عليه ازدادت، يقول المؤرخون: ازداد تشنيع الفقهاء عليه، وكتبوا محاضر بكفره، وأرسلوها إلى دمشق حيث صلاح الدين الأيوبي، ومما قالوه: إن بقي الرجل فإنه سيفسد اعتقاد الملك الظاهر، وكذلك إذا أُطلق فإنه يفسد أي ناحية كان بها من البلاد، وزادوا عليه أشياء أخرى كثيرة مما يوقعه، فأرسل صلاح الدين إلى ولده الملك الظاهر بحلب كتاباً في حقه بخط القاضي الفاضل يقول فيه: إن هذا الشاب السهروردي لا بد من قتله، ولا سبيل أن يُطلق ولا يبقى بوجه من الوجوه.

كيف قتل؛

ولما بلغ ذلك السهروردي أيقن أنه مقتول، ولا سبيل لإطلاقه أو بقائه بوجه من الوجود، فاختار أن يترك في مكان وحيداً دون طعام أو شراب إلى أن يلقى وجه ربه، فأجيب طلبه.

ويقال: إنه قتل خنقاً بوتر.

وقيل : إنما قتل بالسيف.

وجاء: أنه وضع في مكان من القلعة وأحرق.

آخر ما قاله:

آخر ما قاله الشهيد السهروردي عند وفاته وهو يجود بروحه ما أثبته ابن أبي أصيبعة أبيات من الشعر وهي:

قل لأصحابي رأوني ميتاً

فبكوني إذ رأوني حزنا

لا تظنوني بأني ميتٌ
ليس ذا الميت والله أنا
أنا عصفورٌ وهذا قفصي
طرت عنه فتخلىٰ رهنا
وأنا اليوم أناجي مَلأً
وأرى الله عياناً بِهنا
فاخلعوا الأنفس عن أجسادها
لترَوْنَ الحق حقاً بينا
لا ترعكم سكرة الموت فما
هي إلا انتقالٌ من هُنا
عنصرُ الأرواح فينا واحد
وكذا الأجسامُ جسمٌ عمّنا
ما أرى نفسي إلا أنتمُ
واعتقادي أنكم أنتم أنا
فمتى ما كانَ خيراً فلنا
ومتى ما كان شراً فبنا
فارحموني تَرحموا أنفسكم
وأعلموا أنكمُ في إثرنا
مَن رآني فليقوْ نفسه
إنما الدنيا على قرْنِ الفنا
وعليكم من كلامي جملة
فسلام الله مَدْحُ وثنا

وهكذا انتهت حياة السهروردي وهو في السادسة والثلاثين من عمره، بعدما ترك حوالي خمسين كتاباً ومدرسة إشراقية قل نظيرها، لقد قضى نحبه على يد فقهاء حاسدين يدعون المعرفة وهم بعيدون عنها كل البعد، وقد استطاعوا ببلاغاتهم أن يقنعوا صلاح الدين بقتله خوفاً على مناصبهم، كما يكرر في كل عصر وفي كل زمان وإن اختلفت الوسائل والمفاهيم.

المصادر

١- معجم الأدباء -ياقوت الحموي.
٢- وفيات الأعيان- ابن خلكان.
٣- شخصيات قلقة في الإسلام- عبد الرحمن بدوي.
٤- السهروردي- د.محمد جبر.
٥- شهاب الدين السهروردي- د.يوسف زيدان.